بيروت (٢): لماذا انتفض الشارع، ولماذا انطفأ؟

ماهر اليماني

السياق الفلسطينيّ لتحرُّكات الشارع العربيّ

بدأ العدوان الصهيونيّ العسكريّ المدعوم من الإدارة الأميركيّة على مدن فلسطين وبلداتها وقراها في ٢٩ آذار ٢٠٠٢ بهدف ضرب البنية التحتيّة للمقاومة الفلسطينيّة، التي شهدتْ في الأشهر الأخيرة من الانتفاضة تصعيدًا ملحوظًا. فقد باتت المستوطنات بفضل ضربات ثوّار المقاومة ثكناتٍ عسكريّةً، وبدأتْ حركةُ هجرة إسرائيليّة معاكسة ملحوظة، وتحطّم قطاعُ السياحة الإسرائيليّة تمامًا. وأدّت مقاومةُ الشعب الفلسطينيّ وفصائله المقاتلة، برغم ضعف الإمكانيّات مقارنةً بترسانة العدوّ الصهيونيّ والأميركيّ، إلى رفع شعارَي «الدولة الفلسطينيّة المستقلّة» و«إلغاء المستوطنات» باعتبارهما إمكانيّةً واقعيّةً.

وقد تحرّك الشارع العربيّ ، وأحيانًا الدوليّ، بمختلف فئاته، للتضامن مع الشعب الفلسطينيّ داخل مناطق سلطة الحكم الذاتيّ. ويعنينا في هذه السطور القليلة رصدُ تحرّك الشارع اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ تحديدًا.

عجز الأحزاب في الغالب

كان الشارع اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ مشدودًا الى الإذاعات والصحف ووكالات الأنباء، يتابع بالتفصيل اليوميّ كافةَ أحداث الانتفاضة الفلسطينيّة. ثم تنبّهت الأحزابُ والقوى والشخصيّاتُ الوطنيّة والإسلاميّة إلى ضرورة التحرُّك الميدانيّ لمناصرة الشعب الفلسطينيّ إزاء صموده وعجزِ الأنظمة العربيّة عن الضغط على الإدارة الأميركيّة لممارسة دورِها المزعوم في «رعايةِ» ما يُسمّى بـ «عمليّة السلام.»

إلاّ أنّ هذه الأحزاب والقوى والشخصيّات، بيسارها ويمينها ووسطها، كانت هي نفسُها عاجزةً عن وضع برنامج حقيقيّ لدعم الانتفاضة وإسنادها. وكان ذلك ملحوظًا من خلال التجمُّعات والمظاهرات التي اتّخذتْ، في الغالب، أشكالاً فئويّة. وكنّا نلاحظ أيضًا تعدُّدَ المظاهرات والتحرُّكات في اللّحظة ذاتها وفي مناطق مختلفة، كلٌّ يحاول إبرازَ ذاته من خلال الشعارات أو التسابق في رفع أعلامه، محاولاً إظهارَ وجوده في الساحة اللبنانيّة، أو ساعيًا إلى إعلام سلطة الحكم الذاتيّ بنشاطه وتأييده لها ـ وهذا ما حصل في تجمُّع المدينة الرياضيّة بشكل بارز.

لكنّ أسوأ ما في الأمر هو أنّ الأحزاب والقوى اللبنانيّة الوطنيّة والإسلاميّة لم تَنْتبه، وهي في غمرة نشاطها، إلى أنّها كانت تَرْتكب مغالطة هامّة بأنْ شغلتْ نفسَها بتأييد الفلسطينيّين في الداخل في حين غابت عن دعم الفلسطينيّين في لبنان! فكيف نكون مع الفلسطينيّين في الداخل، وضدَّهم في الخارج؟ خذْ مظاهرةَ نوّاب بيروت، والحديثَ في المجلس البرلمانيّ عن الانتفاضة و«ضرورة» دعمها: أليس مفارقًا ومحْزنًا أن يكون معظمُ نوّاب هذا المجلس هم الذين وافقوا على مجموع القرارات المتعلّقة بالتضييق على الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة للفلسطينيّين في لبنان؟! هل غاب عن المجلس الكريم أنّ الشعب الفلسطينيّ واحد: من جنين إلى شاتيلا وعين الحلوة ونهر البارد؟

لقد كان الشارع اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ متخبِّطًا في كيفيّة التضامن مع شعب فلسطين في الداخل، بل هو نسي ـ ويا للأسف ـ أنّ هناك لاجئين فلسطينيّين في لبنان يعانون ما يعانون من شظف العيش وحرمانهم من العمل والتضييقِ عليهم أمنيّاً وسياسيّاً. واقتصرت التحرُّكات على التضامن مع فلسطينيّي الداخل، بدلاً من أن تَعْمد القوى الوطنيّةُ تحديدًا إلى رفع شعار «إعطاء الفلسطينيّين في لبنان حقوقَهم المدنيّةَ والسياسيّة» تعزيزًا لانتفاضة فلسطين.

كما أنّ بعض الأحزاب والقوى عمدتْ إلى تحويل التضامن مع الشعب الفلسطينيّ إلى تضامن مع شخص عرفات، فركّزتْ (من

بيروت (٢): لماذا انتفض الشارع، ولماذا انطفأ؟

خلال شعاراتها) على وضعه الصحيّ والغذائيّ؛ بل إنّ بعضها اعتبر عرفات هو فلسطين، وفلسطين هي عرفات. وبذلك كانت هذه الأحزاب تَهْرب من مهامّها الحقيقيّة، وتَقْصر تحرُّكاتها على انفعالات شخصيّة أو على انتقاد إبراز عجز الأنظمة، بدلاً من أن تبادر هي نفسها (أي الأحزاب) إلى تفعيل خططها لدعم فلسطينيّي لبنان الذين كانوا ـ ومايزالون ـ الخزّانَ البشريّ الفيّاضَ لحركة المقاومة الفلسطينيّة.

دور الشباب

غير أنّه من المفيد أن نُبْرز دورَ المنظّمات الشبابيّة في إسناد الانتفاضة هنا. فقد كانت هذه المنظّمات تتحرّك بشكل مقبول، وكان نشاطُها مبرمجًا إلى حدٍّ كبير. إذ شكّلتْ نقطةَ ارتكاز في وسط المدينة. وكانت لحركتها آثارٌ إيجابيّة في تنفيذ خططها اليوميّة، سواء في اختيار أماكن الاعتصام والتظاهر، أو في اجتراح أساليب جديدة في الاحتجاج كالعمل الحثيث والمدروس لمقاطعة البضائع الأميركيّة والأوروبيّة الداعمة لاقتصاد العدوّ الصهيونيّ، أو في سعيها إلى توزيع الملصقات والبيانات إلى أكبر فئات المجتمع. والأهمّ كان الحوارات التي تدور في مراكز الاعتصام، ولاسيّما مع الأجانب.

ولا بدّ أيضًا من التنويه في هذا المجال بنشاط هذه المنظّمات الشبابيّة في تحدّي القوى الأمنيّة في منطقة عَوْكر، معقلِ السفارة الأميركيّة، حيث استمرّت المواجهةُ أكثرَ من ساعتين كان المتظاهرون يحاولون خلالهما الوصولَ إلى السفارة إعلانًا عن إصرار لا يلين على أنّ الإدارة الأميركيّة حليفةٌ مباشرةٌ للعدوّ، وعلى أنّها ـ من ثمّ ـ جديرة بأن يواجهها الشبابُ العربيُّ كما يواجه أخواتُهم وإخوانُهم في فلسطين العدوَّ الصهيونيَّ المدجَّجَ بالسلاح الأميركيّ والدعم السياسيّ الأميركيّ.

الشعارات: ما غاب، وما حَضَر (وليته لم يَحْضر!)

أخطر ما برز في المظاهرات هو تلك الشعارات التي كان بعضُها يُعطي نظرةً أحاديّةً للصراع مع العدوّ الصهيونيّ ـ الأميركيّ، مثل الشعار الإسلاميّ المتعصّب «خيْبر خيْبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود،» أو تلك التي حاولتْ أن تقزِّم ذلك الصراعَ فتحصره بشخص عرفات كما ذكرنا.

وفي المقابل، غابت الشعارات التي تَنْقد السلطة الفلسطينيّة بوصفها سلطةً عاجزةً إلاّ عن قمع المناضلين والمجاهدين الفلسطينيِّين. فلقد كان أكثرُ المتظاهرين يُدْركون مفهومَي «الإسناد» و«الوحدة الوطنيّة» على غير حقيقتهما. فانتقاد السلطة لزجِّها المناضلين في السجون ليس إلاّ تصويبًا لمسار الثورة، وتنبيهًا للسلطة بأنّها هي التي تَخْرق هذه الوحدة. والسكوتُ عن القمع ليس انتصارًا للانتفاضة، بل هو إسهامٌ في إضعاف جذوتها والتعجيلِ في تقديمها لقمةً سائغةً على طاولة المفاوضات.

كان يُمْكن

كان بإمكان هذه المظاهرات والتحرُّكات أن تكون فعّالةً بشكل أفضل بكثير لو حصلتْ لقاءاتٌ تفصيليّة بين الأحزاب والقوى والشخصيّات الوطنيّة والإسلاميّة للاتّفاق على الحدّ الأدنى من مطالب هذه التحرُّكات التضامنيّة، بغضّ النظر عن الاختلافات الإيديولوجيّة والسياسيّة. وكان يُمْكن أيضًا تحديدُ أماكن التظاهرات كي لا تتشتّت أصواتُ المتظاهرين وقوّتُهم. وكان يُمْكن أن تَعْقد هذه الأحزابُ والشخصيّات لقاءات وطنيّةً جماهيريّة، تَسْتمع فيها الجماهيرُ إلى مواقفها. وكان يُمْكن أن تكون هناك مظاهراتٌ في الأحياء والشوارع الصغيرة، بعيدًا عن آلات التصوير التلفزيونيّة، بهدف تعبئة الجماهير بشكل يوميّ وفعّال. وكان يُمْكن، أخيرًا لا آخرًا، أن يُعْمل على إشراك أكبر عدد من

ماهر اليماني

غابت الشعارات التي تنتقد السلطة الفلسطينيّة لقمعها المناضلين

الفنّانين والشخصيّات الجماهيريّة المعروفة توسيعًا لدائرة الفعل التضامنيّ مع الشعب الفلسطينيّ.

ولكنْ، للأسف، عقدت السلطةُ الفلسطينيّةُ صفقات مذلّةً مع العدوّ الصهيونيّ وأميركا. فرضختْ لشروطه، وحاكمت الأبطالَ الذين صَفُّوا أحدَ أبرز رموز الصهيونيّة البغيضة رحبعام زئيفي، وحوّلت الأمينَ العامَّ للجبهة الشعبيّة أحمد السعدات ومسؤولَ ماليّة حركة فتح فؤاد الشوْبكي إلى سجن أريحا بواسطة حرّاس بريطانيّين وأميركيّين. وواصلت السلطة، وتواصل، تنفيذَها للتعليمات الأميركيّة الصهيونيّة بضرورة اعتقال الناشطين من المنظّمات الفلسطينيّة، كما حدث يوم ٢٠٠٢/٤/٥ حين اعتقلتْ مجموعةً من كوادر الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وكما حدث منذ أيام في غزّة حين اعتقلت السلطةُ «المُفْرَجُ عنها» عشراتِ المجاهدين في غزّة. وكل هذه الممارسات أثّرتْ سلبًا على روح الشارع اللبنانيّ - الفلسطينيّ والشارع العربيّ عامّة.

مخيّم مار الياس

ماهر اليماني

عضو اللجنة المركزيّة العامّة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين.

نصائح مهموسة إلى المتظاهر العربيّ

غادر إلى موقع التظاهرة قبل ساعات.

لا تتخلّ عن مجموعتك.

لا تَحْمل أوراقًا أو دفتر تلفونات.

نظّفْ مكتَبكَ أو بيتكَ من أيّ موادّ قد تضرّ بكَ عند التوقيف.

على كل مجموعة أن يكون معها هاتف خلويّ واحد على الأقل.

ارتدِ ثيابًا خفيفة وحذاءً خفيفًا وألوانًا غير فاقعة.

تجنّب الشعارات التي تخلق الانشقاقات.

رصّ الصفوف وامسك بيد رفيقك.

ناشدْ قوى الأمن أن تلتحقَ بصفوفكم.

إذا حدثت اشتباكات حافظْ على رباطة جأشك، وابقَ مع مجموعتك.

وزّعْ أنت ورفاقك سطولَ الرمل على امتداد المظاهرة.

ارمِ الرمل على قنابل الغاز.

خذْ بصلاً معك لمقاومة الغاز.

إذا جُرح أحدكم لا يَحْمله إلا اثنان أو ثلاثة، واذهبوا به إلى طبيب موثوق.

خذْ معك مساعدات طبيّة أوليّة.

عند انتهاء التظاهرة لا تذهبْ إلى البيت إذ شعرتَ أنّك مُلاحق.

مقتطفات من مقال طويل جداً في موقع «الصوت العربيّ الحرّ»
www.freearabvoice.org